

محاضرات الثلاثة

تأليف فضيلة الأستاذ أحمد الشرباصي — نشر مكتبة الخانجي بمصر
١٦٠ صفحة من الحجم الكبير — طبع دار الكتاب العربي بالقاهرة

وزحم الصفحات بالسطور والكلمات ، وضغط العبارات بعضها بجانب بعض في صورة لافتة ، ويظهر أن قسوة التسكليف في الطباعة مع الغلو الفاحش في أثمان الورق ، مع رغبة المؤلف الفضال في أن يحشد أكبر قدر ممكن من محاضراته في حين معقول من الصفحات ، هو الذي دفعه إلى ذلك ؛ وإلا فإني أعتقد أن كتابه الذي ظهر في مائة وستين صفحة من الحجم الكبير كان من الممكن بكل سهولة أن يظهر في أربعمائة صفحة من نفس الحجم الذي ظهر به ، لو أنه طبع بحروف كبيرة كالخروف المعتادة التي تظهر بها الكتب المختلفة .

انظر معي إلى البحث الأول من بحوث هذا الكتاب الجديد ، إن موضوعه هو : « الثقافة العامة في القرآن الكريم » ؛ وهو موضوع جليل استطاع الكاتب فيه أن يصول ويجول ، وأن يأتي بأشياء تدهش وتثير مما احتواه هذا الدستور الإلهي العجيب من الحقائق والدقائق ، والعلوم والفنون . فهو يتحدث عما هو القرآن الكريم ، وعن الخطر الذي يتعرض له القرآن بسبب انتشار التعليم المدني بدون تطعيمه بالتعليم الديني ، ثم يورد المعاني اللغوية لكلمة « الثقافة » ثم يحدد معناها العرفي الاصطلاحي في براعة ودقة ملاحظة ، ويورد لك جميع استعمالات القرآن لكلمة ثقافة ، ثم يورد شهادات كثيرة للقرآن بأنه كتاب الثقافة ، ويبين كيف فرض القرآن الثقافة فجعلها حقاً مشاعاً مجانياً لكل طالب وراغب ، وكيف استوفى القرآن أركان الثقافة في ناحية العقل والنفس والجسم ، ويتحدث بعد ذلك عن العلوم في القرآن ، وعن أسلوبه الرفيع وغريب اللغة فيه ، وعن أمثاله وأدب خطابه ؛ ثم يختم بحثه المستفيض بالمطالبة الصريحة بأن يكون القرآن الكريم أساساً للتعليم .

عندى أن الكتاب الذي يظهر في السوق الأدبية لا يكون له قيمة ، إلا إذا أتى بجديد ، أو جاء بطريف ، وأما إذا كان ترديداً لكلام سابق ، أو نقلاً مشوهاً عن مصدر قديم ، فإنه لا يروج إلا عند الجهلاء ، أو الذين لم ينالوا من الثقافة قسطاً كافياً يجعلهم يفرقون بين الطيب والخبيث ؛ وما أقل الكتب القيمة التي تستلفت البصر وتثير الفكر في هذه الأيام .

وأشهد لقد ثارت في نفسي عواطف الإعجاب والتقدير حينما تناولت كتاب : « محاضرات الثلاثة » لمؤلفه فضيلة الأستاذ المحاضر المعروف والكاتب البليغ الشيخ أحمد الشرباصي الأستاذ بالأزهر ، فإني أفرر أن هذا الكتاب من الكتب القليلة التي تأتينا بالجديد ، وتقبل على عقولنا بما يفيدها ، وعلى قلوبنا بما يوقظها ويحركها ، وعلى نفوسنا بما يسمو بها ؛ وعلى الرغم من أن هذه البحوث القيمة التي اشتمل عليها كتاب : « محاضرات الثلاثة » قد ألفت في محاضرات عامة بدار الشبان المسلمين منذ عام أو عامين ، وعلى الرغم من أن الكثيرين قد سعوا إليها ، وسمعوها من صاحبها ، فلا يزال لهذه البحوث جدتها وطاقاتها ، ولا يزال لها قوتها ومكانتها ، والسبب في ذلك عندى أن صياغة المحاضر غير صياغة الكاتب ، وأن هذه المحاضرات تتناول أموراً تشغل بال الناس ، وهم لا يزالون يتطلبون فيها الفكرة الواضحة والرأي الفاضل والقول الصواب ؛ ولذلك أعتقد أن الكثيرين الذين حرصوا على الاستماع إلى هذه البحوث الطيبة وهي محاضرات تلقى وتذاع بصوت صاحبها ، سيحرصون كذلك على اقتنائها مطبوعة وقراءتها مكتوبة بقلم قائلها . والرجوع إليها إذا ما أرادوا أن يستأنسوا برأى دقيق في هذه الموضوعات الهامة .

وإذا كان لي من نقد شكلي أتعجل بسوقه إلى المؤلف فهو أنه اختار لكتابته نوعاً من الحروف صغيراً دقيقاً ،

ونجد البحث الثاني عن « الإسلام والشيوعية » جديداً في فكرته وطريقته ؛ إنه لا يفترى على الشيوعية ولا يفنى فيها ، وإنه لا يؤيد الديمقراطية ولا يعاديهما ، وإنه يقر الرأسمالية ولكنه يقصص حدة خوافها ، ثم يقدم لنا الإسلام العظيم مذهباً اقتصادياً يمتاز ببساطته وعدالته وتمشيهِ مع المصلحة العامة التي لا تزهِق المصلحة الفردية ، ومعنى هذا أن الذين يتغنون بالشيوعية يجب أن ينصرفوا عنها ، وأن الذين ينجذعون بالديمقراطية يجب أن يبتعدوا عنها ، وعلى الجميع أن يأخذوا دستورهم من كتاب ربهم الذي لا يضل ولا ينسى ، ومن تعاليم دينهم الذي جعله الله خاتمة الأديان وصالحاً لكل زمان ومكان ؛ ولقد كان المؤلف دقيقاً عميقاً في حديثه عن الزكاة والربا والاحتكار والتأمين والإرث والتجارة والاستغلال والاستبداد وغير ذلك .

وأما بحث « الإسلام وتحديد النسل » فموضوع دقيق جليل ، زلت فيه أقدام وتهورت أقلام ، فجاء المؤلف يعرض المسألة من جميع نواحيها ، فيتحدث عن العزل والعزوبة والتعقيم والإجهاض والوآد ، وعن علاقة تحديد النسل بالإصلاح الاجتماعي ، وهل يحتاج المجتمع حقيقة إلى تحديد النسل أو لا يحتاج ، وما أشد تهكم المؤلف الداعية حين طالب بتحديد نسل السكّاب المدللة ، وحين قال :

« هل يعلم الناس أن في بلادنا من يكرم السكّاب أكثر مما يكرم الآدميين ؟ ومن يحزن لفراق السكّاب كما يحزن لفراق الأعزاء ؟ ومن يقيم لكتبته مأتماً إذا ماتت ؟ ومن يقيم ضريحاً رخامياً لكتبه الغالي ؟ ... ألم يقرأ الناس في صحفنا اليومية ذلك ؟ ألم يروا من بين المناظر المثيرة المؤسفة المنشورة في تلك الصحف صورة تلك المرأة الثرية التي أُلصقت خدها بضريح كتبها الرخامى ، وأخذت تبكي على العريضة الغالية ؟ » ...

ثم يأتي بحث المؤلف الكبير : « في صحة المكفوفين » وهو أضخم بحوث الكتاب من حيث الكمية ، وأمتعها من حيث الكيف ، إذا استطعنا أن نفاضل بين بحوث الكتاب الجيدة كلها ؛ فقد استغرق هذا البحث الجديد الطريف العظيم من صفحات الكتاب ما يزيد عن ثلاثين صفحة ، وكل صفحة كبيرة الحجم مضغوطة بالسطور ، وهذا ما ألوم المؤلف عليه أشد اللوم ، لأن هذا البحث مثلاً كان يمكن أن يظهر كتاباً مستقلاً ، لو أنه طبع طبعاً عادياً بحروف كبيرة أو متوسطة ؛ وهذا اللوم الشديد لا ينسني أن أقرر أن هذا البحث هو أول بحث رأيته في العربية عن هؤلاء المكفوفين . وهو بحث يستحق

أن نرف التهنئة عليه إلى حضرة المؤلف مضاعفة موفور ، لأنه بحث جديد بكل ما تحمل كلمة « جديد » من معان ... إنه جديد في موضوعه ، وجديد في عرضه ، وجديد في الروح النبيلة المخلصة التي دفعت المؤلف إلى أن يلتقي عدة محاضرات عن المكفوفين ، ثم يسجل هذه المحاضرات في باب طويل ممتع يضمه هذا الكتاب ؛ وأكاد أعتقد أن هذا البحث الجديد عن المكفوفين سيكون بدءاً لبحوث كثيرة حول هذه الطائفة من غير المؤلف ، وإن كان المؤلف قد أفاض خدثنا عن المكفوفين في الحياة وفي التاريخ ، وحديث القرآن عن العمى ، وذكاء العميان ، ونواديرهم وأخلاقهم وما أصابهم من ظلم ، والطرق الحديثة لتعليمهم ، ولم ينس المؤلف أن يكون وفيّاً لمعهده الأكبر الجامع الأزهر ، فطالب بأن ينهض المسئولون في الأزهر بالمكفوفين الأزهريين حتى يأخذوا قسطهم الأوفى من التعليم والحياة .

وسيطول القول إذا فصلت الكلام عن بحوث الكتاب : « جمال الدين الأفغانى » و « ذكرياتى عن التدخين » و « الربيع في القرآن الكريم » و « مذهب الشيخ محمد عبده في الإصلاح » ؛ ولكنى لا أستطيع أن أختتم هذا القول دون أن أشير إلى البحث القيم الذي ختم المؤلف به كتابه هذا وهو بحث : « الأخلاق في المسيحية والإسلام » . ولقد كان المؤلف صادقاً كل الصدق حين أراد أن يضع العنوان لهذا الفصل فقال في أوله : « إنها دعوة تتسامى عن صخب الجدل الدينى ، لتدعو أبناء الوطن الواحد إلى أسباب الاتحاد في ميدان الجهاد » . وقد استطاع المؤلف بطول بحثه وتنقيته أن يلم بشتات الموضوع في هذه الناحية ، فعرض الأخلاق مفصلة في الإسلام ، ثم عرض الأخلاق مفصلة في المسيحية ، ثم أخذ يبين وجوه الاتفاق بين الأخلاق في الدينين ، ثم أحسن التأويل لإزالة بعض مظاهر الخلاف الذي يبدو بين المسيحية والإسلام ؛ ثم اتخذ من هذا الاتفاق وسيلة لكي يدعو أبناء الوطن الواحد من أهل الدينين إلى الاتحاد والتعاون في سبيل الحياة والوطن ، بعد أن بين الأخطار التي تنشأ عن التعصب وحدة الخلاف ...

لا جرم أن هذا كتاب جديد ، وكتاب مفيد ، فلصاحبه أوفر الشكر ، ولقرائه أطيب النفع ! ...

محمود الخواص

المدرس بوزارة المعارف